مَنْ للمعذبين فى الأرض؟! (*)

من مظاهر "شرود" المجتمعات والأنظمة، أن تتسع فيها الهوة فتصير بعيدة أو فارقة أو سحيقة، بين الأقلية الموسرة الغنية المترفة الناعمة القادرة المتحكمة أو الحاكمة، وبين سواد الناس من البسطاء والفقراء والمعدمين والمطحونين والتعساء المشغولين ليلهم ونهارهم بما يتبلعون به ويكفون نداء البطون والأطفال الذين يقتلهم الجوع وينحر فى قدرة أجسادهم ونفوسهم على الصمود للحاضر التعس الشقى المرّ، ناهيك بالمستقبل الأشد إظلاماً ويأساً وقنوطاً.. ذلك المستقبل الذى لا يريد أمثال هؤلاء أن يتطلعوا إليه لأنه يزيد همهم الحاضر بهموم لمطحونين بؤساء وتعساء قد لايكون لهم غد!!!.

ومن مظاهر "بلادة" المجتمعات والأنظمة، أن لا تحس ذلك كله وتعجز عن رؤيته أو لا تحب أن تراه!!.. والأكثر من هذا بلادة وخطراً أن يغفل عنه عقل الأمة، أقصد مثقفيها ومتحضريها وصفوتها القادرة - رغم زحام الحياة وضغوط المال والسياسة - أن ترى ما لا يره المشغولون بصناعة الحكم وتكريس البقاء فيه أو بصناعة المال وزيادة أكوامه وتراكماته واتساعه ونفوذه وإشباعه لنهم نفوس لا تشبع ولا يهدأ نهمها إلى المزيد ومزيد المزيد!..

العجيب أننا بعد ثلاثة وخمسين عاماً من عمر ثورة انتفضت لتقف إلى جانب الفقراء، وتنحاز للأغلبية المطحونة الصامتة التى إليها فى الواقع كل إنتاج مصر الزراعى الذى به تقتات، والصناعى الذى عليه

---

* ٢٠٠٥/١١/٢

تعيش، قد تاه منا حكاماً ومحكومين، وتاه من معظم صفوتنا المثقفة الممثلة لعقل الأمة، ماكان حاضراً وشاغلاً لنا بل ومن قبل قيام ثورة يوليو.. من قبل تلك الثورة نادى طه حسين وغير طه حسين بمجانية التعليم كالماء والهواء، لا بمجانية صناعة الجهل وإشاعة الظلام والأظلام، وكتب فى عز الملكية للمعذبين فى الأرض، يقول للناس فى بلاده إنه يقدم كتابه: "إلى الذين يحرقهم الشوق إلى العدل، وإلى الذين يؤرقهم الخوف من العدل.. إلى الذين يجدون ما لا ينفقون، وإلى الذين لا يجدون ما ينفقون!!! "ويصور فيه الكثرة الكثيرة البائسة التى تتحرق شوقاً إلى العدل مصبحةً وممسيةً، وفيما بين آناء الليل وأطراف النهار، وتلك القلة القليلة التى تجزع وتشفق من العدل وتفزع من أن يأخذ منها ما يتراكم لديها أو يحاسبها على ما كان.. ينحاز فى كتاباته إلى هؤلاء الذين أضناهم الحرمان وأضنى أولادهم البؤس والتعاسة والشقاء، ولا يتحرج بعد الصفحات التى ساق فيها صوراً تحرك الضمائر الميتة المتبلدة على المعذبين فى الأرض - من أن يختم حديثه بثقل الغنى والثراء، من التوقف عند الصحابى الجليل عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة.. ذلك الصحابى الذى كان كثير المال والثراء فى الجاهلية، ثم أسرع إليه المال فى دار الهجرة رغم أنه بدأ من الصفر، فقيراً فقراً مدقعا بعد أن ترك ماله كله بمكة هارباً بنفسه ودينه من جبروت طواغيتها.. بيد أن هذا الثراء العريض، فى الجاهلية ثم فى الإسلام، لم يصرف قلبه وفعله وعطاءه عن الخير، فملكه الشغف ببذل ماله للدعوة وللفقراء والبؤساء والمعدمين، لا يفوته أحد من أهل الصُفة الذين أقاموا فقرا وإملاقا بجانب المسجد النبوى.. ولا يفوته أن يضطلع هو وعثمان بن عفان بمعظم نفقات جيش العسرة الذى ذهب لصد هجوم مرتقب من الرومان عن تبوك!!.. ومع ذلك يقول له نبى القرآن إنه - بما له من ثراء عريض - لن يدخل الجنة إلاّ حبواً!!

أين المجتمع والحكم الآن، وأين كتابات أهل الفكر والأدب اليوم من كتابات هؤلاء السالفين؟!.. أين هم من يحيى حقى الذى انشغل عمره بالفقراء والبسطاء مع أنه مستور من بيت مستور.. يدع النقراشى وماهر والكبار الذين حوكموا وانشدت إليه الأعناق ونظرات الإعجاب حين قضى ببراءتهم عام ١٩٢٦ فى قضية الاغتيالات الكبرى، فامتدت إليهم الأيادى والقبلات والأحضان، بصفهم الأخير الذى فيه يجلسون أويقفون محوطين - بأناقتهم ومكاناتهم، تبذل لهم التهانى والتباريك عبر بسيط ومن فوق رأس مطحون من الغلابة سمع لتوه الحكم بإعدامه بذات القضية، فنسيه الناس فى غمرة الفرح بالكبار.. هنالك تنغرز نظرات يحيى حقى وتتشد - حسبما روى فى كتابه البديع: "خليها على الله ".. إلى محمد فهمى - هل يذكره أحد؟! - النجار عامل العنابر الذى قضت المحكمة بإعدامه شنقا من أجل القضية الوطنية، فينساه الساسة، وينساه الكبار، وينساه المترفون، وينساه المثقفون فى صراخهم وتهليلاتهم وتصفيقهم وهتافهم للساسة الكبار.. رأته كاميرا يحيى حقى اللاقطة، فكتب عنه حزينا يذكرنا بأننا فى انحيازنا للكبار والقادرين، ندوس البسطاء ونعرض عن الغلابة.. يومها ودعه يحيى حقى بنظراته الحانية وهم يقتادونه مذهولا مما يراه، ليغيبوه وراء الأسوار حتى ينفذ فيه حكم الإعدام فيجدد حزنه - حزن يحيى حقى - عليه، ويحزن أكثر لأنه لا يذكره أحد؟!

هذه الصفوة من الكتاب والمفكرين والأدباء هى التى تحفظ المجتمعات والأنظمة من الشرود ومن البلادة أيضا.. أنظر إليه إلى يحيى حقى - فى كتابه: "صفحات من تاريخ مصر "، لا تصرفه الكتابة عن الكبار الذين استأثروا فى ثورة ١٩١٩ بأكاليل الغار، عن "ابن القباقيبى" شهيد ثورة ١٩١٩.. كان يحلو للإنجليز آن يصفوا شعب مصر إبان الثورة بأنهم من الغوغاء، وأنهم طغمة من

الرعاع.. فيبتهج يحيى حقى أن الثأر للكرامة الوطنية جاء من "إبن القباقيبى ".. لم يدر بخياله أن يضرب القدر ضربته، ويقدم البطولة فى شخص هذا الصبى الذى من مثل عمره، ويقيم بقرب داره، الفارق بينهما أن يحيى حقى ببدلة فوق قميص، وابن القباقيبى بجلابية على اللحم.. فارق آخر أنه حافٍ مع أن صناعة القباقيب هى حرفة أبيه الذى يعمل معه!.. يومها خرج هذا الصبى: ابن القباقيبى، تاركا "المنشار" و "القدوم" ودكان أبيه الذى لا ولد له سواه، ليلقى بنفسه فى غمار الثورة والثوار، فيسقط قتيلا برصاص الإنجليز.. فى جنازته خرج المستشارون والقضاة والمحامون، مع الطلبة والتلاميذ، والصفوف الغفيرة من أبناء الشعب، ليشيعوا بطل "الرعاع "!!.. ماذا كان اسمه؟! أين قبره؟! أسئلة يطرحها يحيى حقى ويجيب آسيا أن لا أحد يدرى!!

من أجل هذا الانحياز للذين تنحسر عنهم الأضواء، وربما معها البحبوحة وطيب العيش، كتب يحيى حقى مجموعته الرائعة: " ناس فى الظل ".. كتاب نابع من انتباه وحنان للذين تراجعوا بحكم الغربة أو قبضة الفقر أو الشيخوخة أو التجاهل، ومع ذلك لا يكفون لحظة عن صناعة الحياة، دون أن يذكرهم أحد!!!

فماذا فعلنا ونفعل نحن الذين نتشدق بالكلام، وبالشعب وحق الشعب، والناس وحق الناس، وتحالف قوى الشعب العاملة.. أكفيك بمثل واحد حتى لا تشق الصدور.. فبينما أخرج الموسيقار محمد عبد الوهاب فى الخمسينيات رائعته الصبر والإيمان يقول فيها: الصبر والإيمان دول جنة المظلوم.. والظلم والحرمان ويلهم من المحروم!!، ويقول فيها: صوتى مع الآذان حيقول فى كل أوان يا ظالم لك يوم مهما طال اليوم.. يا ويلك يا ظالم يا ويلك!! "!! لم يطق الحكام سماع الأغنية، وهى محض أغنية، فمنعوها لسنوات طويلة وكأن منع الغناء سيمنع المظلومين من الإحساس بالظلم.. هذا المنع نفذه

مصريون مثقفون وظلوا عليه لا يجرؤ أحد على أن ينادى - مجرد مناداة - بفك المصادرة التى فرضت على أغنية الموسيقار: "الصبر والإيمان"!!

لست إلى جلد الذات أريد، وإنما أريد أن أقرع الأجراس.. أن ألفت الأنظار والبصائر، للحاكمين والمحكومين، للمثقفين وللعقلاء، أن الهوة فى مصر قد باتت سحيقة بين القلة الغنية الموسرة القادرة المتحكمة المتصرفة الناعمة بسلطاتها ونفوذها ومالها وطيب حياتها، وبين الكثرة الكثيرة المغلوبة على أمرها، الفقيرة فقرا مدقعا حتى العدم، التى تنظر وتشاهد، وترى وتشعر وتحس، وتقارن.. هؤلاء الذين يعيشون فى شقوق بالقرى والنجوع والكفور الدساكر، هى كل دنياهم مأكلا ومشربا ونوما وقضاء حاجة.. لا عهد لهم بما فى المراكز ناهيك بعواصم المحافظات، أما العاصمة والإسكندرية، فصارتا كالقبلة التى تتمناها أحلام الشاردين فقرا وإملاقا يتطلعون إلى هذه أو تلك هربا من وحشة الفقر وتقتير الأيام، عسى أن يجدوا فى اتساع الحياة فيهما ما يفتح لهم ثغرة ولو فى زقاق، فتأكلهم وحشة العاصمة الكبيرة التى لا تتسع إلاّ للقادرين.. حين كتب يوسف إدريس قصة: "قاع المدينة"، لم يدر بخلده ولا بخلد أحد منا أن نظام الثورة المباركة سوف يأخذ هؤلاء الهاربين من الشقوق - إلى سكنى المقابر لا المدينة أو قاع المدينة.. أو إلى سكنى عشوائيات ظلت تتراكم حتى صارت عالما آخر مليئاً بالمخدرات والموبقات وبزنى المحارم.. يرقد تعسا شقيا إلى جوار أحياء الأثرياء والقادرين.. لم يقف أحد ليتصور كيف ينظر الخارج من شقوق العشوائيات والمقابر إلى سكان العمائر - ناهيك بالفيلات والقصور - وهم يخرجون من بيوتهم بعلامات النعمة والترف المتبدية على محياهم وعلى أزيائهم وعلى سياراتهم؟!.. كيف يزحف البسطاء المقهورون للبحث عن خرم إبرة للوقوف بحافلة على أطراف الأصابع، بينما

بكل سيارة راكب فرد اللهم إلاّ أن يكون معه سائق ليقود وليفتح له الباب ويغلقه بدلا منه!.. ولم يتوقف أحد ليتأمل وقع ما يعرض على شاشات التليفزيون المصرى والفضائيات المصرية والعربية والعالمية من مظاهر حياة تحير وتضنى وتميت كل مشاعر الإنسانية فى وجدان هؤلاء التعساء الذين يطالعون فى الصور المتحركة مشاهد لا يلامسونها ولا يجرؤون حتى على الحلم بها؟!!.. هل أحس الحكام - جميع الحكام - فى مواكب الخيلاء وطرقها وأبهاتها بأنها كلها فى ومن عالم غير العالم الذى يعيش فيه المطحونون البؤساء من سواد الشعب؟!.. هل أدركت صناعة الإعلام - إن فات وقد فات على ولاة الأمر! - أن ما يعرض على الشاشات يعنى من ناحية "بلادة" الإحساس أو بالأحرى عدم الإحساس بكيف يعيش معظم المصريين، ويعنى من ناحية أخرى تنمية بذور الامتعاض والرفض ثم الثورة والعنف والإرهاب؟!.. هل كلف أحد خاطره لينتقل إلى العشوائيات أو إلى القبور أو إلى القرى والكفور والدساكر والنجوع ليرى كيف يعيش الناس، هل التفت المثقفون والمفكرون والأدباء والكتاب إلى هذا العالم الشقى التعس بدلاً من المعارك الوهمية أو أغراض الحصول على "الاقطاعيات" فى عالم الثقافة بدلاً من الانتاج الذى هو غاية وعدة ومنهج وحياة كل أديب ومفكر وكاتب.. هذا الإنتاج الذى ملأ به الدنيا، العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وأترابهم دون وزارة أو إقطاعيات للثقافة؟!.. هلا كتبنا عن حالة اللاتوقع والسلبية المتفشية فينا جميعا حتى النخاع حتى لا يعرف الواحد منا كيف تعمل طفاية الحريق المركبة بسيارته، أو كيف يبلغ الأجهزة المختصة بالإطفاء والإسعاف، أو كيف يجرى التنفس الصناعى، أو كيف يطفىء النار، أو كيف يتلافاها أو يتلافى المواد المشعلة أو المساعدة على الاشتعال، أو ينهى العاملين البسطاء بالمكاتب والهيئات والمؤسسات والمرافق عن "نصبة" الشاى والقهوة

الذى باتت منصوبة بالبوتاجاز وأحيانا ببوابير الجاز فى كل مكان تهدد بالحريق فى كل لحظة.. يسرى هذا بجوار الأكشاك بالشوارع وعلى كل الأبنية والصروح مثلما صار وكان فى قصر الثقافة ببنى سويف الذى وقعت به الكارثة، وهى كارثة قابلة للتكرار فى كل لحظة وفى كل مكان، وفى كل مرفق ووزارة وهيئة ومؤسسة.. هل انتبهنا إلى سلبية عامل التليفونات وعامل النجدة وتليغونجى أو سائق المطافى أو الإسعاف، الذى قد يهمل الرد أو يتراخى فى الانتقال إلى أن يفرغ - إن فرغ - من احتساء كوب الشاى؟!.. هل أدركنا أن هذه كلها عيوب مجتمعية متفشية لتردى عام واسع المدى كثير الأسباب فى حياتنا، لن يحله إقالة أو استقالة وزير أو مسئول، مالم تخرج الأمة ويخرج النظام والحكم والمثقفون والناس من حالة الموات والهبوط والخبو والانحطاط التى استشرت فى الجميع حتى مست كل شىء فى حياتنا، ومست فيما مست انعدام قدرتنا على الالتفات إلى عالم الأغلبية التى تعيش إلى جوارنا شقية تعسة مطحونة مغلوبة مقهورة تكابد لتجد ما تتبلعه وتسكت نداء الجوع به، بينما نعيش نحن مجتمعا آخر، ودنيا أخرى، ومدائن أخرى، وأحياء أخرى، وفنادق أخرى، ومستشفيات أخرى، وأبنية أخرى، وعوالم أخرى تستفز هؤلاء البسطاء الذين لم يعد يعنيهم ما نتشدق ببحبوحتنا به، ولا بالنظريات والأطر والآليات والسياسات والفاعليات التى ملأنا الدنيا بها صياحاً، ناسين هؤلاء وما هم فيه بينما نحن نعيش فى الواقع عالة عليهم.. نحن نعيش عالة على الفلاح الذى يعيش يومه تحت وهج الشمس لتنبت الأرض أرضنا، وعالة على العامل الذى يكد نهاره وليله ليصنع الإنتاج الذى لا يصنعه القابعون المترفون فى المكاتب وفى تكييفات المكاتب، المروحون عن أنفسهم فى لقاءات الأعمال بالفنادق، أو فى قصور المصايف؟!.. ونعيش عالة على "الكناس" و "السائق" و "الحلاق" و"الحداد" و "النجار" و "الطباخ"

و "الشغالة" و "السمكرى" و "البوهيجى" و "الخطاط" و "التومرجى" و "المسعف" و "الجندى" و "الغفير" و "البواب" و "المنادى" و "الطعمجى" و "الفوال" و" الخيمى" و "النقاش" و "الإسكافى" و "الأستورجى" و "الساعاتى" و "العتال" و "السقا" (تجددت الحاجة إليه!!) و "الشيال" و "الفراش" و "الحاجب" و "الزبال" و "القهوجى" و "الرفا" و "الترزى" و "ماسح الأحذية " و "الفرارجى" و "الجنايني" و "الفحام" و " المطبعجى" و "المعصرانى" و "النادل" و "بياع الجرايد" و "المدلكاتى" و "المجبراتى" و "السروجى" و "المنجد" و "المبلط" و "القماش" و "البوسطجى" و "الجزار ".. فى دول الحضارة الغربية يعيش هؤلاء تقريباً كما يعيش الصفوة، ولا فارق كبير فى العلام ولا فى الثقافات ولا فى الكينونة، بل تكاد تتلامس بلا فروق.. لا تتفاوت عندهم" المعايش" هذا التفاوت المخيف الذى يجرى هنا، مع أنهم لا يتشدقون هناك بالاشتراكية والأديان وحقوق الإنسان!. محال فى مصر أن تجد أحداً من الحكام أو القادرين ذوى الباع يلين أو يتعامل بإنسانية مع هؤلاء.. لذلك فقد شدنى ولا يزال الزعيم التاريخى خالد محيى الدين، العظيم فى بساطته.. كنت فى زيارته بمكتبه شديد التواضع، فشدنى أنه لا حجاب ولا ساتر ولا حاجز بينه وبين هؤلاء البسطاء ومن دونهم من الغلابة.. لا أحد بالباب يأذن لهم، وإنما يدخل الآتى حين يأتى فيقابله الرجل الكبير بحنو بالغ، ويسمع له فى تواضع أبلغ، ويسارع ليكتب له ورقة أو يجرى إتصالا تليفونيا ليحل للآتى مشكلته أو يقضى له حاجته.. لا تشعر إن لم تكن تعرف الأشخاص سلفا، من السائل ومن المسئول.. من الطالب ومن العاطى.. يتسلل إلى حناياك فقط أنك أمام إنسان حقيقى.. عظيم بلا افتعال.. يدرك أننا جميعا إلى تلك الشجرة - وأننا مهما كبرنا فإن مصر تقوم على أكتاف وسواعد وعمل وعطاء هؤلاء.. نعم. نحن جميعا أصحاب النفوذ والمناصب والمكاتب

والأماكن والضياع والهيلمان، عالة على هؤلاء وغيرهم ممن فاتنى حصرهم.. عالة على هذا العقد الذى لا ينتهى من البسطاء صانعى الحياة فى صمت وبساطة!.. حتى إذا فارقنا الحياة أو فارقتنا - متنا عالة على "المغسلاتى" و"الحانوتى" انتهاء "بالتربى" الذى يوارينا التراب بكل ما كان معنا من سؤدد وعظمة وأبهة وانصراف تام عن الإحساس بالأشقياء والتعساء من عباد الله الذين لم تعد تجدى معهم المسكنات ولا الصدقات، مالم ننتبه ونقوم بما علين قبل أن يدهمنا الطوفان: بركان الغضب والحرمان!!